

إذا ما نسمة البانات^(١) مرّت
وصافحت الخزامَ وعتقوانا^(٢)
جدارَ ديارٍ من أهوى قديماً
ألا يا لآثمي دغني فلأني
على نجدٍ وصافحت العرارا^(٣)
وشيحاً ثم قبّلت الجدارا
رعى الرحمن هاتيك الديارا
رأيت الموت حجاً واعتمارا
صحاً كلُّ، وفرقتنا سكارى
فأهل الحبّ قد سكرُوا ولكن

وفي البيت الأخير من تلك المقطوعة الشعرية، يفرّق ابن زُقاعة بين
الحب الصوفي وغيره من ألوان المحبة . . فالمحبون على اختلاف محبتهم
يسكرون بمحبتهم حيناً، ثم يصحون من سكرهم . أما الصوفي، فهو سكرانٌ
أبداً بمحبته الإلهية، لا يصحو من نشوته الأزلية الأبدية . . وهذا المعنى،
قريب مما قاله عبد الكريم الجيلي حين وصف العاشق الصوفي - في قصيدة
النادرَات - فقال:

صَحَا النَّاسُ مِنْ سُكْرِ الْغَرَامِ وَمَا صَحَا وَأَفْرَقَ كُلُّ وَهُوَ فِي الْحَانِ جَامِعُ

ومن جيد شعر ابن زُقاعة، تلك الأبيات الغزلية الرقيقة التي يتغنّى فيها
بجمال المحبوب مستخدماً طريقة الصوفية التي تبدو في ظاهر الأمر كأنها غزلٌ
في معشوقه حسية، بينما المراد الحقيقي هو جمال الذات الإلهية . . ومع أن
ابن زُقاعة لم يكن مضطراً لكل هذه الرمزية التي ربما اضطر إليها الصوفية
السابقون عليه، إلا أنه آثر أن يسلك مسلكهم الرمزي، فيقول:

(١) بانات: جمع «بان» وهو من نبات البادية.

(٢) العرار: نبات طيب الرائحة.

(٣) الخزامى: نبات طيب الرائحة له زهر أحمر فوّاح . . والعتقوان: شجر يشبه شجر الرمان، ورقه
أحمر. وجميع النباتات المذكورة هنا، تكثر في نجد.